

مرحلي إلى

مكة المكرمة والمدينة المنورة

(ربيع الآخر ١٤٤٠هـ / ديسمبر ٢٠١٨م)

عبدالله سالم

abdullah2246800@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإثنين ٩ ربيع الآخر ١٤٤٠ هـ (١٧ ديسمبر ٢٠١٨ م):

عندما انطلقت الحافلة انطلقت معها ألسنة وقلوب الركاب، تدعو الله أن يجنبها وعتاء السفر، وأن يُكرمها ببلوغ البلد الحرام في أمن وسلامة، وكنت واحدًا من أولئك المتلهفين المشتاقين، وإذ كنت راكبًا جانب النافذة فقد أخذت أخفف عن قلبي لوعة الشوق ريثما نصل بمشاهدة الخارج في ذلك الصباح الباكر. رأيت كما لم أرَ من قبل انبلاج الضوء رويدًا رويدًا حتى أزاح الظلام تمامًا، فكنت أرى المصابيح الكهربائية تتألأأ من البيوت البعيدة، ثم ضعفت رؤيتها مع بدء شروق الشمس وانتشار ضوئها العارم، وما يزال يشتد هذا ويضعف ذاك حتى عم ضوء الشمس سائرَ الأرجاء، واختفت أنوار المصابيح في خجل.

لم يطل تأملي للخارج إذ سرى إليّ الملل بعدما أصبحنا في قفار ليس فيها ما يشد النظر، فتصفحت كتابًا وقرأت فيه حتى تسلل إليّ النوم كما تسلل إليّ

أكثر رفاقي في الحافلة، فاستسلمت له بسهولة، إذ ليس لديّ ما يجعلني أغالبه، فالكتاب الذي كنت أقرأ فيه لم يشدني كثيرًا، وليس لديّ شيء آخر أتسلى به، وعلى العموم فلم يمهلني النوم لأفكر في خيارات أخرى.

وبين نوم واستيقاظ، وتوقف وانطلاق، وموضع ننزله فيلفحنا هواؤه البارد، وآخر معتدل الجو، كانت تمضي الساعة تلو الساعة ونحن في تلك الحال، حتى انقضى ما يقارب يومان، حيث بلغ بنا السفر الميقات، فنزلنا فيه، وكان الجو باردًا، ونظرت حواليّ فرأيت هناك ساحة كبيرة يقوم في آخرها مسجد، وعلى جنبات الساحة تنتشر بكثرة أكشاك تباع فيها أردية الإحرام وأشياء أخرى قد يحتاجها المحرم، فابتاع المعتمرون من هناك ما يريدون، وانطلقوا يغتسلون ويلبس الرجال رداءين أبيضين يذكران بالمساواة بين الناس الذين فرقتهم الأموال والمناصب. وفي المسجد صلينا فرادى ركعتي الإحرام، ثم انطلقنا على بركة الله إلى مكة المكرمة.

* * *

الأربعاء ١١ ربيع الثاني ١٤٤٠ هـ (١٩ ديسمبر ٢٠١٨ م):

وصلنا بعد حوالي ساعة، وكان الوقت قريباً من طلوع الفجر.. ما كنت مصدق تماماً أنني أصبحت في خير بقاع الأرض مكة المكرمة، ربما كنت بحاجة إلى قرصة تؤكد لي أنني لا أحلم، أنني فعلاً وفي ذلك الوقت المهيب من السحر أقف على أرض مكة.. تنفست هواء مكة لأول مرة في حياتي، ورنوت إلى ما تراءى لي من جبالها خلف ظلام الليل، وتذكرت كثيراً مما أعرفه من تاريخ مكة، وفكرت كثيراً.. كنت أود لو أستطيع ولو للحظة خاطفة أن آخذ مكة بمسجدها الحرام وجبالها وشعابها إلى حضني لأسكب عليها دموع الحب والشوق الذي لا يزول باللقاء كما يقول صاحب الفتوحات المكية رحمه الله.

لقد كنت أشعر أن لا طاقة لقلبي بهذه المشاعر والأحاسيس التي تشتعل فيه، إن قلبي أضعف من هذه وليس له عهد بمثلها، وكنت أود لو أستطيع الطيران إلى المسجد الحرام الذي لا يبعد عني إلا أميالاً قليلة، لكن عوائق مصدرها المواصلات حبستني أكثر من ساعة في مكاني ذلك بأحد شوارع

مكة، فارتفع صوت أذان الفجر من المساجد، وكنت كلما ارتفع صوت مؤذن
أرهفت إليه سمعي متسائلاً في دخيلة نفسي: أهو صوت الأذان من الحرم؟!
ولست أدري أكنت قد سمعته من بين ما سمعته آنئذ أم لا؟ وبعد الأذان رأيت
الناس يتوافدون إلى مسجد كنت أقف بجانبه، فكنت أغبطهم وأرنو إليهم بشدة
كأنهم من عالم آخر، وأقول في نفسي: لشدّ ما أنتم محظوظون إذ تعيشون في
البلد الحرام، يا ليتني كنت معكم!

وبعد زوال العائق الخاص بالمواصلات توجهت برفقة ثلاثة من أقاربي إلى
الحرم الشريف، وما هي إلا دقائق معدودات حتى كنا بجانب المسجد الحرام،
فدخلناه من باب لا أذكر اسمه، وبعد لحظات وجدت نفسي لأول مرة في
حياتي أرى الكعبة المشرفة أمامي واقعاً وحقيقة وليس كما تعودت أن أراها في
صور فوتوغرافية أو في شاشة التلفاز، فوجئت بي أرى الكعبة أمامي وكنت أظن
أننا نحتاج إلى المشي مسافة أبعد لنراها.. رأيت نفسي فجأة أمامها، فذهلت
لحظات، وتجاذبتني مشاعر لن أستطيع وصفها قط، كما لن تستطيع الأيام محو
ذكرى تلك اللحظات. انتابني آنئذ شعور مزيج بين الرهبة والدهشة والفرحة،

أخيرًا أنا هنا، أخيرًا أقف أمام الكعبة المعظمة وأتملاها عن قرب، يا لجمالها!
ويا لجلالها! بل يا لجمال ويا لجلال المسجد الحرام كله! كأن هذا الموضع
ليس من الدنيا، وكأن هؤلاء الناس لم يعودوا من أهل الدنيا، إن كان لابد أن
يذكر موضع آخر مع هذا الموضع فلتكن الفردوس الأعلى، فهنا بالقرب من
الكعبة لا يخطر على بالي شيء من شؤون الدنيا، حتى أصحابي الذين قدموا
معي لم أعد أود رؤيتهم ولا حديثهم معي، أريد أن أبقى وحيدًا وسط الجموع،
لا أريد أن يعرفني أحد هنا لكي لا يسرق مني روعة اللحظات التي أعيشها.

استقبلنا الكعبة التي لا تبعد عنا إلا أمتارًا قليلة وصلينا الفجر، فقد وصلنا
المسجد الحرام بعد أن صلى الناس، ثم انضممت إلى الجموع الغفيرة من
الطائفين لأداء مناسك العمرة، كنت أشعر أن الأرض تدور مع الناس دورانًا
محسوسًا، وعندما توقفت ذات مرة والتفت إلى الخلف شعرت بذلك الشعور
أكثر من ذي قبل، كان كل شيء حولي يطوف بالكعبة وليس الناس وحدهم،
غير أن طواف هؤلاء الناس قد اجتذبنى بشكل لم أتصور حدوثه..

أدهشني أولاً ذلك المزيج العجيب الجميل من سائر أجناس الأرض، فكان ذلك المزيج المتعدد كالألوان المختلفة للوحة الجميلة، فلو اقتصرنا على لون واحد لنقص ذلك من جمالها.

لفت نظري أيضاً أن بعض الأعاجم من أهل البلد الواحد يطوفون ككتيبة واحدة، لا يتفرون وسط الزحام، وربما تشابكت أيديهم لكي يشدوا من جمعهم فلا يتفرق، وكثيراً ما يتقدمهم أحدهم، يتلو أدعية وأذكاراً، وهم يرددون خلفه بلسان لا يقيم بعض الحروف العربية، والله يتقبل منا ومنهم.

ومن عجيب ما شاهدته هناك - وكل ما هنالك يثير العجب - رجلاً كبيراً في السن وبه إعاقة لا يستطيع معها السير، رأته يطوف بالكعبة زحفاً، فكم من الوقت يمكنه فيه إتمام الطواف سبعاً؟! وأي جهد سيذله في طوافه بتلك الطريقة؟! ولقد كنت آنئذ أشعر بألم في قدمي المورمتين من طول السفر، فاستهنت بما بي، وخجلت من نفسي.

وأما الزحام والتدافع على الحجر الأسود والركنين اليمانيين فشدّيد جدًّا، وقد عجزت عن تقبيل الحجر الأسود فاكتفيت بالإشارة إليه، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

وكان مما شاهدته امتلاء حجر إسماعيل بالناس، والحجر - كما هو معروف - جزء من الكعبة، شاءت حكمة الله عز وجل أن يظل هكذا بغير بناء خلاقًا لما أقامه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام.

ورأيت مقام إبراهيم عليه السلام، وأثر أقدامه المباركة في الحجر، فسبحان الخالق المصوّر.

شعرت في تلك اللحظات كأن الزمن يعود آلاف السنين، وكأنني أرى إبراهيم عليه السلام يرفع قواعد الكعبة المعظمة، وكأنني أنظر إلى إسماعيل عليه السلام ينطلق هنا وهناك فيجمع الأحجار ويناولها أباه وهما يسألان الله القبول.

ويطوى الزمن مرة أخرى فأرى النبي صلى الله عليه وسلم يضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة، وأراه يصلي هنا، ويدعو إلى الله هناك، وينال أذى كثيرًا فيصبر، ثم يأتي يوم الفتح فيحطم الأصنام القبيحة التي كانت ترض في هذا المكان الطاهر.

وفي المسعى تذكرت السيدة هاجر وهي تذهب وتجيء بحثًا عن الماء لها ولطفلها إسماعيل عليه السلام حتى أتت المعجزة الإلهية بزمام.

طافت بخيالي العديد من الذكريات والأحداث، فله تلك اللحظات ما أجملها!

* * *

الإثنين ٢٤ ربيع الآخر ١٤٤٠ هـ (٣١ ديسمبر ٢٠١٨ م):

توجهت من مدينة جدة برفقة بعض الأقارب والأصدقاء إلى مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة مرة ثانية، فوصلناها بعد صلاة العشاء. أدّينا مناسك

العمرة، وكحلنا أعيننا برؤية المشاعر المقدسة، ثم عدنا إلى جدة قبل طلوع
الفجر، والحمد لله على منّهِ وفضلهِ.

* * *

الجمعة ١٤ ربيع الآخر ١٤٤٠ هـ (٢١ ديسمبر ٢٠١٨ م):

إلى طيبة الطيبة توجهنا عصر هذا اليوم من مدينة جدة، وفي الطريق كنا
ننصت لأناشيد عن المصطفى عليه الصلاة والسلام وعن مدينته الطاهرة، فيزداد
بذلك الشوق، وتتلهف القلوب لبلوغ مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم
ومثوى جسده الشريف.

وصلنا المدينة بعد صلاة العشاء وقد بلغ بي الشوق مبلغاً لا أستطيع وصفه،
وإن الشوق للمدينة لا يشبهه أي شوق، وإن حب المدينة يختلف عن كل
حب، وإن جمال المدينة لا يضاهيه جمال.

كأن المدينة قطعة من الجنة وضعت على هذه الأرض، وكأن هواءها نسيم يهب من الجنة، ولقد رأيت السكينة والطمأنينة تسكن كل شيء في المدينة حتى في شوارعها وحركة سياراتها، وحق لها ذلك، فأين يمكن أن تسكن الطمأنينة إن لم تكن في مدينة الهادي البشير صلى الله عليه وسلم؟!!

توجهنا إلى المسجد النبوي الشريف، ودخلنا من أحد أبوابه الخلفية إلى ساحة واسعة، فللمسجد ساحات واسعة من جهاته الأربع، وفي كل جهة سوى الأمامية عدد من الأبواب؛ خُصت بعض الأبواب الخلفية للنساء، كما خُصت لهن أوقات للصلاة في الروضة الشريفة.

ثم ذهبنا إلى الساحة الجانبية اليمنى لمن يأتي من خلف المسجد، ودخلنا من باب السلام؛ وهو باب يؤدي إلى القبر الشريف وإلى الروضة المباركة، ففوجئت بالزحام الشديد، ولولا رجال الشرطة القائمين بتنظيم الناس لحصل كثير من التدافع؛ نظرًا لضيق مساحة الروضة، وضيق الممر المؤدي إلى الشباك الفاصل بين زائر رسول الله وبين الحجرة التي تضم القبر الشريف، وقد مُدَّ هناك

حاجز يمنع الزائر من لمس الشباك، فيمر الزوار واحدًا تلو الآخر، يلقون السلام على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما.

ولأن الزحام شديد في ذلك الوقت، والدخول إلى الروضة الشريفة شبه متعذر، فقد اكتفينا بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه عن بُعد حوالي خمسة أمتار من الحجرة الشريفة، لكن هذا لم يشفِ غليلي، فقد كنت أودّ الاقتراب قدر الإمكان من القبر الشريف، مع ما في الاقتراب من شعور بالهيبة بدأ يتتابني منذ دخولنا المدينة المنورة، وكلما اقتربت من القبر الشريف كنت أشعر بازدياد الهيبة من صاحب القبر عليه الصلاة والسلام، تمامًا كأني سأجده قاعدًا يحدث أصحابه الكرام قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى.

في الثلث الأخير من تلك الليلة غادرت الفندق وحيدًا إلى المسجد النبوي الشريف، وبعد دقائق معدودات كنت داخل المسجد، وعلى خلاف توقعي وجدت زحامًا شديدًا في الروضة وفي الممر الذاهب إلى شباك الحجرة

الشريفة، فأخذت لي موقعًا بين الناس أحاول الدخول إلى الروضة، وبعد حوالي ساعة من التقدم البطيء استطعت الدخول، غير أنني ظللت ما يقارب ساعة واقفًا لا أستطيع الصلاة ولا القعود، فالموضع الذي حصلت عليه لا يتسع بسبب ضيقه لغير الوقوف.

وقفت في الروضة الشريفة؛ إحدى رياض الجنة كما صحت بذلك الأخبار؛ وهي الموضع الذي يقع بين بيت النبي صلى الله عليه وسلم (حيث قبره الشريف) وبين منبره عليه الصلاة والسلام (يقوم موضع منبر النبي صلى الله عليه وسلم منبرٌ حديث)، ولا تشكل الروضة حاليًا من المسجد النبوي إلا مساحة صغيرة لا تتجاوز فيما قدرت بضعة أمتار طولًا وعرضًا.

ظللت واقفًا حتى أفسح لي أحد القاعدين موضعه لأصلي فيه، فصليت ركعتين بجانب إحدى السواري، وبعد أن أتممت صلاتي التفت إلى تلك السارية فإذا هي - كما كتبت عليها - تقوم موضع السارية التي ربط فيها

الصحابي أبو لبابة الأنصاري نفسه لذنب أذنبه حتى تاب الله عز وجل عليه،
والقصة المذكورة في كتب السير.

ومن الروضة الشريفة اتجهت مباشرة إلى القبر الشريف، فوقفت - كما
يقف غيري - أمام الشباك، يمنعنا من لمسه حاجز يحول بيننا وبينه، فسلمت
على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسلمت على صاحبيه رضوان الله عليهما،
وحاولت النظر من خلال الشباك إلى القبر الشريف، فرأيت على القبر تابوتاً
عليه قماشاً أخضر، ولولا رجال الشرطة الذين يمنعون من المكوث طويلاً لما
انصرفت بعد وقت قصير، فإن للوقوف بخشوع في حضرة النبي صلى الله عليه
وسلم شعور لا أستطيع وصفه، من جربه عرفه، ومن لم يجربه فليسأل الله عز
وجل أن لا يحرمه منه.

ومن جانب القبر الشريف خرجت إلى الساحة الأمامية، حيث ترى عن قرب
القبة الخضراء القائمة على القبر الشريف، وهناك في الساحة يلتقط بعض الزوار

لأنفسهم صوراً فوتوغرافية تظهر فيها القبة الخضراء، ويقضون أوقاتاً مباركة بالقرب من المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وإلى جانب المسجد من جهة اليسار لمستقبل القبلة تقع مقبرة البقيع؛ المقبرة المباركة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرر زيارتها، والتي تضم قبور كثير من أهل البيت والصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، منهم السيدة فاطمة الزهراء (حسب بعض الروايات)، وأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى السيدة خديجة والسيدة ميمونة، وعثمان بن عفان، والحسن بن علي رضي الله عنهم أجمعين.

وفي الجهة اليمنى للمسجد يوجد سوق شعبي يعرض فيه الباعة كثيراً مما يحتاجه الزوار مدة إقامتهم في المدينة، أو ما يجلبونه من هدايا إلى بلدانهم، وقد تجولت في ذلك السوق، وعجبت عندما رأيت أحدهم يدفع نقوداً من عملة بلده للبائع، فيتسلمها هذا بكل بساطة، كأنه من المعتاد أن يتعامل بعملات غير عملة هذا البلد.

وإلى جانب ذلك السوق تقوم حديقة - كما كُتِبَ هناك - مكان سقيفة بني
ساعدة التي ببيع فيها أبو بكر رضي الله عنه خليفة للمسلمين بعد وفاة الرسول
صلى الله عليه وسلم.

* * *

السبت ١٥ ربيع الآخر ١٤٤٠ هـ (٢٢ ديسمبر ٢٠١٨ م):

صلينا العصر في مسجد (سيد الشهداء) الواقع بجانب جبل الرماة على
مقربة من الجبل المعروف (أحد)، ثم اتجهنا إلى قبور شهداء المعركة التي
سميت باسم الجبل. تقع القبور بجانب المسجد مباشرة، ويحيط بها سياج من
حديد، وقفنا خلفه وأدبنا مراسم الزيارة لسيد الشهداء حمزة ولبقية الشهداء
الكرام، وعلى خلاف ما كنت أظن لم يكن يبرز من القبور إلا قبر حمزة وقبران
آخران إن لم تخني الذاكرة، أما بقية المقبرة فهي أرض مستوية. أخبرنا بعض
مرافقينا أن ذلك الموضع الذي يقوم عليه المسجد والمقبرة هو الموضع الذي
شهد معركة أحد في السنة الثالثة للهجرة بين النبي الكريم وأصحابه الكرام من

جانب وبين جحافل الشرك من كفار قريش وحلفائهم، وذهب ضحيتها سبعون من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم.

كان الموقف مؤلماً بالنسبة لي، صحيح أنني أعلم ما آلت إليه الأمور بعد ذلك من انتصار الإسلام وأهله وفتح مكة وإسلام كثير من الأعداء السابقين، لكن من المؤلم جداً الوقوف في موضع شهد ذات يوم استشهاد سبعين من الصحابة الكرام، بل شهد محاولات مستميتة لقتل من أرسله الله عز وجل رحمة للعالمين صلى الله عليه وسلم، ولقد كنت أدفع عن نفسي الألم كلما قرأت عن معركة أحد، فإذا الزيارة لأحد تحكي لي بشكل أشد إيلاًماً ما حدث هناك منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.

صعدنا بسهولة إلى جبل الرماة، فهو جبل صغير خلافاً لما كنت أتوقعه، وكان عليه كثير من الزوار، يحكي بعضهم لبعض ما حدث في غزوة أحد، وكيف التفّ خالد بن الوليد - قبل إسلامه - على المسلمين مستغلاً الثغرة التي تركها له الرماة الذين أمرهم النبي بالمكوث في الجبل لحماية ظهر المسلمين، مشدداً

لهم على عدم ترك الجبل على أي حال، غير أنهم بارحوه ظانين أن المعركة قد انتهت وأن المشركين قد ولوا بلا رجعة، فحدث ما حدث في ذلك اليوم.

* * *

الأحد ١٦ ربيع الآخر ١٤٤٠هـ (٢٣ ديسمبر ٢٠١٨م):

ذهبنا إلى قباء للصلاة في مسجدها المبارك؛ أول مسجد في الإسلام، فصلينا فيه العصر، وتجوّلنا قليلاً بجانب المسجد. وكالعادة في كل المعالم الإسلامية التي زرناها رأيت هناك كثيرًا من الناس من أجناس مختلفة، كما رأيت بقلبي - إن صح التعبير - الرسول الكريم وأصحابه الكرام من المهاجرين والأنصار يضعون الأساس لهذا المسجد، فيضعون بذلك أساس أول مجتمع مسلم.

وبعد أن قضينا في المسجد وحواليه أوقاتًا تنطق بالسعادة وتفيض بالحب استقلنا السيارة مغادرين، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى كنا في الطريق

المؤدي إلى خارج المدينة النبوية، يملؤنا الأسى ويعتصرنا الحزن على فراق طيبة
الطيبة؛ مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *